من أسرار نظم القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور
أحمد عبد الجواد محمد عكاشه
أستاذ البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

نحمده جل ثناؤه حمداً يستدر أفاويق نعمائه، ويستدفع أهاويل بلائه ونصلى ونسلم على سيدنا محمد صفوة الخلق ورسول الحق ، وعلى آله وصحبه وجميع الأنبياء والمرسلين.

عن العالم الجليل والفقيه الزاهد ــ مالك بن دينار ــ وقد قيل له: إنك تعتزل الناس وتجلس وحدك وكأنك ترى نفسك فوق الناس فأجابهم ــ رضى الله عنه . قائلاً : إني لا أجلس وحدى وإنما أجالس ربى فإن شئتُ أن أناجيَه دخلتُ فى الصلاة وإن شئت أن يناجينَى قرأتُ القرآن[1] .

ولم لا ؟ وهو كلام الخالق ، مُعجزة خالدة ، مُستمرة لن تنفد، مشرقة لن تغرُب وإن غربت الشمس ، مُضيئة لن تأفل وإن أفلت النجوم ، دائمة لن تُخلق وإن خلق الكون ، ليس من سبيل لجحودها ، لأنها مرئية بالبصر ، مسموعة بالأذن ،

---

[1] مع القرآن الكريم حول جزء تبارك حـ١٣ ، فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى ، ط المدنى

ملموسة باليد ، متدبرة بالعقل، قال عنه الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن الكريم من الرسول العظيم مخاطبا قومه : فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مِنِّى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن ، فو الله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا . واللَّهِ إنَّ لِقوله الذى يقوله لَحَلاوة وإنه ليحطِّم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يُعلى . قال له أبو جهل والله لا يَرضَى قومُك حتى تقول فيه . قال : فَدَعْنِي حتى أفكر فيه . فلما فَكَّر . قال : إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤثَر[1].

وصور الله حالة القساوسة الرُّهبان فى سيطرة القرآن على جميع جوارحهم فقال : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ...)[2] وسر الإعجاز فى قوله تَفِيضُ من الدَّمْع ، والفَيْضُ هو مِلْئُ الشئ حتى يطلع ما فيه من جوانبه وهو من إقامة المُسبب مقام السبب وهى المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تَفِيض .

ويقول عنه ابن مسعود "لا يَنفَه ولا يَتَشَانّ" وقال : إذا

---

[1] فى ظلال القرآن للشهيد/ سيد قطب ، ص ٣٧٥٦ ، ط دار الشروق ، الآية رقم ٢٤ من سورة المدثر.

[2] بعض آية من سورة المائدة : رقم ٨٣ ، وانظر الكشاف للزمخشرى ، جـ١ ، ص ٢٧١ .

وقعت فى آل حم وقعتُ فى رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ أتـأنقُ فيـهِنَّ أى أتتبَّـعُ مَحَاسِـنَهُن"(١).

وهذا أبو العلاء المعرى يبرز سِرًّا من روعـة القـرآن وجمـال نظمه، حيث يقول "هذا الكتاب الذى جـاء بـه محمـد ـ صَلَّـى الله عليه وسلم . كتابٌ بهر بالإعجاز .ولقـي عـدوه بالإرجـاز ، مـا حُذِي على مثال. ولا أشبه غريب الأمثال ، مـا هـو مـن القصيـد المَوزون(٢) ، ولا فـى الرجـز مـن سـهل وحـزون ، ولا شَـاكل خِطَابة العرب ، ولا سـجعَ الكهنـة ذوِى الأَرَب ، وجـاء كالشـمس اللائحة نُورا للمُسِرة والبائحـة..." .

ولم تقف الروعة عنـد الإنـس فحسـب بـل اسـتحوذت علـى قُلوب الجن حيث عبّر الخالق عنهم (وَإِذْ صَرَفْنَـا إِلَيْـكَ نَفَـرًا مِـنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَـرُوهُ قَـالُوا أَنصِتُـوا فَلَمَّـا قُضِـيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنذِرِين قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَـمِعْنَا كِتَابًـا أُنـزِلَ مِـنْ بَعْدِ مُوسَـى مُصَدِّقًـا لِمَـا بَيْـنَ يَدَيْـهِ يَـهْدِى إِلَـى الحَـقِّ وَإِلَـى

---

(١) تفِه الشئ صار تافها حقيرا ، وتشان الجلد يبس أو تشنج ، وانظر دلائل الإعجاز للإمـام عبـد القاهر الجرجانى ، ص ٣٨٨ ، تحقيق الأستاذ محمود شاكر ، ط الخانجى .

(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، ص ٤٧٢ ، تحقيق د/ عائشة عبد الرحمن ، ط دار المعـارف، مع القرآن ص ٤٩ على النجدى ، دار المعارف .

طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)[١].

هذا بعض من وصف المخلوق فى كلام الخالق فكيف بوصف الخالق العظيم فى كتابه الكريم (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ)[٢]. (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا)[٣] . والعِوَجُ يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كما يكون فى أرض بسيط يُعرف تفاوته بالبصيرة والدين والمعاش ، كما يقول الرَّاغب ، وفى قوله (قَيِّمًا) تأكيد لنفى العوج فُرِّب مستقيم مشهود له بالإستقامة ولا يخلو من أدنى عِوَج عند السير، وقيل قَيِّمًا على سائر الكتب مُصَدقاً لها شاهداً لصحتها ...".

وقال سبحانه (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)[٤].

هذا هو القرآن كتاب الله الناطق ، وخلق الله كتابه الصامت،

---

[١] الآيتان من سورة الأحقاف : ٢٩ ــ ٣٠ .

[٢] بعض آية من سورة الزمر : ٢٨.

[٣] آية رقم ١ وبعض آية ٢ من سورة الكهف وأنظر الكشاف جـ١ ص ٥٦١.

[٤] بعض آية من سورة الزمر رقم ٢٣ ، وأنظر فضائل القرآن للدكتور على العمارى جـ١ ص ٥٧ ، وكتاب التعريفى فى القرآن جـ١ ، د/ إبراهيم الخولى .

ومَوئِلُ الكتابين واحد: (أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ)[١].

الكتابان ينطقان بقدرة الخالق (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)[٢] (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)[٣] رسالتهما واحدة .

(فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)[٤] (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ)[٥].

قرآننا الكريم يَدعُونا إلى تأمل الكون وكشف أسراره وأسراره آيات على قدرته (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ)[٦]

هذا الكون يَضم أسراراً تكتشف فينطق الكتاب الناطق بما يحكيه من أسراره (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)[٧]. (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ

---

[١] الأعراف رقم ٥٤.

[٢] الملك رقم ٣.

[٣] النساء رقم ٨٢.

[٤] سورة الملك رقم ٣ .

[٥] من سورة النساء رقم ٨٢ وسورة محمد ٢٤.

[٦] يونس رقم ١٠١.

[٧] فصلت رقم ٥٣.

شئ)[١]. (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[٢].

هذا التبيان لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، كلام لا يدانيه كلام سواه فى بَرَاعة نظمه ، وحلاوة منطقه ، وائتلاف فواصله ، وإحكام تقاسيمه ومتانة نسجه ، هو ماضٍ وحاضر ومستقبل .

يُعرب الخطابى عن سيطرة القرآن الكريم على القلوب وروعة بيانه فى الصُّدور بأنه كان وما يزال مُعجزا باللفظ والمعنى . حيث يقول[٣] فالقُرآن إنمَّا صَارَ مُعْجِزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مُضمنا أصح المعانى من توحيد له عزَّت قدُرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودُعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته واضعا كل شئ منها موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه ... .

وأعلم أن عَمُود هذه البلاغة فى وضع كُلّ نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذى يكون فيه

---

[١] النحل رقم ٨٩.

[٢] من سورة النحل رقم ٤٤.

[٣] بيان إعجاز القرآن للخطابى ص٢٧،٢٩ ضمن ثلاث رسائل ، ط دار المعارف بمصر .

فساد الكلام ؛ وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة. فقد جاء القرآن فى نظمه البديع وتأليفه العجيب مُقَنَّاهٍ فى البلاغة إلى الحد الذى يعجز عنه البشر .

ثم يُردف الخطابى فى تحليل بيانه وتفتح أكمامه ودفع شبه قد يَرد ، وأن لكل كلمة خاصية تتميز بها عن صاحبتها ... حيث قول : "نلك أن فى الكلام ألفاظا متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب وذلك كالعلم والمعرفة والحمد والشكر والبخل والشح . وَمِنْ وَعَنْ ونحوهما من الأسماء ...

فالعلم والمعرفة وإن اشتركا فى الدلالة العامة إلا أنهما يفترقان فى دقائق . تقول عَرَفتُ الشئ وعلمته إذا أردت الإثبات الذى يرتفع معه الجهل ولكن فى (عَرفْتُ زيدا) يقتضى مفعولا واحدا ، وعلمت يقتضى مفعولين تقول (علمت زيدا عاقلا) فالمعرفة تستعمل خُصوصا فى توحيد الله تعالى وإثبات ذاته لذلك تقول (عَرفتُ الله) ولا تقول (عَلِمتُ الله) إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات . تقول (علمت الله قَادِرا وعلمته سَميعا) . فحقيقة العلم ضده الجهل والمعرفة ضدها النكرة ، وكذلك الحمد والشكر يشتركان فى الثناء المطلق . تقول (حَمَدتُ زيدا)إذا أثنيت عليه فى أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك

منه معروف ، وتقول (شَكرتُ مُحمّدا) إذا أردت جزاءه على مَعروف أسداه إليك ، والحمدُ يكون قولا فقط والشُكر يكون قولا ويكون فعلا كقوله تعالى (أعمَلُوا آلَ دَاودَ شُكْرا)[1] .

ويوضح الفرق بين الشّح والبُخل فقد يظن أنهما يتواردان على معنى واحد والصواب أن بينهما خلافا ، فالشّح هو مَنع الحق ظلما والبخل ما يَجده البخيل في نفسه من الحزازة عند أداء الحقوق وإخراجهما من يده .

وهكذا يكشف الرقائق التي تتضم في هذا النظم الكريم فيوضح الفرق بين دُخول الفعل على عَنّ وبين دخوله على إلى التي خفيت على أحد أعلام اللغة وهو القبيّى في قوله عَزَّ وجل (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا)[2] .

زعم أنه من قوله "عَشَوتُ إلى النَّار أعشو إذا نظرت إليها" فغلطوه في ذلك وقالوا : إنَّ المعنى مَنْ يُعرِض عَنْ ذكر الله نُقيّض له شيطانا يصرفه عنه . فالفعل عَشَا إذا جاءت بعده (إلى) أفادت النظر والإقبال إلى الشئ فهم يقولون : عشوتُ إلى الشئ إذا نظرت إليه ويقولون عشوت عنه ، إذا أعرضت. وعشاه إذا دخلت عنّا على غيره أفادت الإنصراف والإعراض .

---

[1] المصدر السابق ، ص٣٠ ، بعض آية من سورة سبأ رقم ١٣.

[2] من سورة الزخرف رقم ٣٦ ، الخطابي ص٣٣.

ومثل ذلك ما وقع لأبى العالية الرياحى حيث قال له رجل: يا أبا العالية يقول الله تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِم سَاهُونَ)(١) ما هذا السهو ؟ قال : الذى لا يدرى عن كَمْ ينصرف عن شفع أو عن وتر ، فقال الحسن : مَهْ يَا أبا العالية، ليس هذا بل الذين سهوا عَنْ ميقاتيهم حتى تفوتهم . قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجل (عَنْ صَلَاتِهِم) ؟ قَالُوا : إنما أتى أبو العالية فى هذا حيث لَمْ يفرق بين حرف (عَنْ) وحرف (فِي) فتنبه له الحسن فقال : ألا ترى قوله (عَنْ صَلَاتِهِم) يريد أن السَّهْو الذى هو الغلط فى العدد إنما هُو يَعْرِضُ فِى الصَّلَاة بعد مُلابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : فِى صَلَاتِهِم سَاهُون) فلما قال عَنْ صَلَاتِهِم دَلَّ على أن المراد به الذهاب عَنْ الوقت .

ومن لطيف هذه الضرب ما خفى على عربى صريح ، ما رُوى أن أعرابيا قال لِرسُول الله ـ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم : عَلِّمنى عَمَلا يدخِلنى الجَنَّة . فقال : أَعتِقْ النَّسَمَةَ وَفك الرَّقَبَة . قال الأعرابى : أَوَ ليساَ وَاحدًا ؟ قال : لاعِتق النسَمَةِ أن تَتفَرَّدَ بِعِتْقِها وَفك الرَّقَبة أن تُعين فى ثمنها ، فالعتق الذى هو الأصل فى التحرير واقع على النَّسمة كلها وفك الرقبة ليس نَصًّا فى

(١) من سورة الماعون رقم ٥ ، الخطابى ، ص٣٥.

هذا المعنى وإنما هو أشبه بالعوَنِ المالى الذى يساعدوه فى العتق ولا يستقل به . ويَضْيف شيخُنا أبو موسى معلقا فى قوله[١] ألا ترى أن كلمة الفَكّ تستعمل فى كلامهم فيما دُون الكسر فى انفساح القدم وانفراج المنكب استرخاء ، فليس فى أصل معناه فصل وإبانة ، فالمعنى فى الحديث أنه يفك الرقبة فقط ولا يحلها، أى لم يرسلها حُرة ، وإنما يفك بمقدار ما يعين فى ثمنها فكلمة فَك الرقبة استعملت مَجازا فى العِتق ولكنها هنا جاءت لاحقة له فكان ذلك قرينة على عدم إرادة خلاف معناها ، أى على إرادة الحقيقة[٢] .

وهكذا يكشف الخطابى عن دقة مناحى البيان وصعوبة الولوج إلى دقائق اللطائف وأن ذلك لا يكون طريقا سهلا وأن مُراعاة هذه الفروق لا تتوفر فى نَصٍّ مِنَ النُصُوص كما تتوفر في القرآن الكريم ، فقد رُوعيت فى كل كلمة وحرف فيه ثم ينطق الخطابى كى يُبرز أسرارا عميت عن بعض القوم الذين لم يدركوا أسرارا فى نَظْم القرآن وأن لكل كلمة مَكانا لا تصلح غيرها فيها ، فيذكر زَعما من هذه المزاعم فيقول "فإن قِيل إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة فى القرآن إنما

---

[١] الإعجاز البلاغى ص٥٩ ، مكتبة وهبة ، د/ محمد أبو موسى .

[٢] بيان اعجاز القرآن للخطابى ، ص ٣٨ــ٣٩.

وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها وذلك لوجود أشياء منها بخلاف هذه الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها .

وذلك كقوله تعالى (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)[1] وإنما يستعمل فى مثل هذا فى فِعّل السّباع خُصُوصا الافتراس ، يقولون (افترسه السبع) هذا هو المختار الفصيح فى معناها فأمّا الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع يريدون بذلك أن استعمال كلمة (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) غير مناسبة للمعنى وأن المعنى المناسب افترسه الذئب ويدفع الخطابى هذه الفرية بقوله : إن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل حَسْبُ وأصل الفَرْس : دَقّ العُنق ، والقوم أبناء يَعقوب عليه السلام إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلا وأتى على جَميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مَفْصِلا ولا عَظْما ، وذلك أنه خافوا مُطالبة أبيهم بأثرٍ باق منه يشهد بصحة ما ذكروه فادّعوا الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة.

والفَرْسُ لا يعطى تمام هذا المعنى فلا يَصْلُح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل وهذا وَارِدٌ فى كلام العرب فى شعرهم ونثرهم .

---

[1] بعض آية من سورة يوسف رقم ١٧ ، الخطابى جـ١ ٤١.

ويجرنا حديث الأكل إلى تذوق النظم القرآن في قوله عز وجل : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)[١] . هذه الآية تأكيد للزجر والتهويل في شأن اليتامى وأكد ذلك بما رسخ في نفوسهم من الاستهانة بأموالهم بالجملة الأسمية الداخلة عليها إن المخبر عنها بالفعل المضارع الدال على التجدد والأكل في الحقيقة ابتلاع الطعام ثم استعير للانتفاع بالشئ وأخذه بحرص والأكل أقوى أحوال الاختصاص بالشئ لأنه يحرزه في داخل جسده ولا مطمع في إرجاعه ، وعبر بلفظ الأكل لأنه أزجر وألذع وذلك أن وجوه الإنفاق الأخرى من ملبس ومسكن مما لا يشارك الإنسان فيه غيره لأنها من متصرفات الإنسان خاصة لكن الأكل هو الصفة المشتركة بين الإنسان والحيوان والفرق في هذه الصفة المشتركة أن الحيوان يأكل ما يقع تحت فمه غير ناظر إلى أنه من حقه[٢] أو أنه من حق غيره . أما الإنسان فإنه لا يأكل إلا ما كان من حقه لأنه هو المكلف بالشرائع فإذا ما أكل من حق غيره يكون قد هدم الحد الفاصل بينه وبين

---

(١) الآية من سورة النساء رقم ١٠.

(٢) أنظر خلاصة ما قيل في عناية القاص ، ج٣ ، ص١١٠ ، تفسير التحرير والتنوير ، جـ٤ ، ص ٥٤ ، ط التونسية الشيخ الطاهر .

الحيوان. ثم تأمل الإضافة الموجودة فى قوله أموال اليتامى وكيف ضربت على الأموال خيمة من البؤس واليتم والمسكنة ، وما يبعثه فى نفس ذى المروءة وما تحمله من التنفير والتشنيع على هذا الآكل وانتقل إلى الحال الموجدة المقيدة بقوله (ظلماً) وما توحى إليه من حشية الأكل الذى يظلم اليتيم وهو فى حالة من الضعف والعجز وقلة الحيلة[1]. وانتقل إلى القصر النابع من إنما التى تكون مع الخبر الذى لا يُدفع ولا يجهل . و التعبير بقوله فى بطونهم والأكل لا يكون إلا فى البطون للتأكيد والإيضاح والتنفير من هذا العمل . ودقق فى المجاز الذى يوجد فى قوله (ناراً) والتنكير الذى يدل على التعظيم وهى مجاز مرسل من ذكر السبب وإرادة المسبب ، وقيل : النار مستعار للألم أو مستعار للتلف ثم العطف فى قوله، وسيصلون سعيراً وهى مرادف وتأكيد للجملة الأولى والسين حرف تنفيس أى استقبال وهى تدخل على المضارع فتمحضه للاستقبال سواء كان استقبالا قريباً أو بعيداً وهى تفيد الوعيد والصلى الإيقاد بالنار والسعير النار الملتهبة وهى فعيل بمعنى مفعول ، وهكذا كلما ازددت تمكناً وإخلاصاً فى صفة البيان ازددت إدراكاً للأسرار المنطوى عليها هذا التبيان وتلك منة يمنها على من

---

[1] الإعجاز البلاغى ص٣٦ــ٣٧ ، د/ محمد أبو موسى ، ط وهبة .

يشاء من عبـاده .

ويردى الخطابى ما قيل فـى قولـه تعـالى : (وأنطلـق المـلأ منهم أن امشوا واصبروا)[1] فهم يقولون إن المشى فـى هـذا ليـس أبلغ الكلام ولو قيل بدل ذلك (امضـوا) أو (انطلقـوا) لكـان أبلـغ وأحسن. وفليجيب : بأن المشى فـى هـذا المقـام أولـى وألصـق بالمعنى ذلك لأنه إنمـا قصـد الاسـتمرار علـى العـادة الجاريـة ولزوم السجية المعهودة ، فى غير انزعـاج منـهم ولا انتقـال عـن الأمر الأول ، وذلك أن المشى أشبه بالثبات والصـبر المـأمور بـه فى قوله تعالى (وأصـبروا علـى آلـهتكم) والمعنـى كأنـهم قـالوا امشوا على هيئتكم وإلى فهوى أموركـم ولا تعرجـوا علـى قولـه ولا تبالوا به . وفى قولـه : (مضـوا وانطلقـوا) زيـادة انزعـاج وسرعة سير لا توجد فى قوله امشوا هذا ألوان مـن نظـم القـرآن بثها وكشفها الخطابى فى دلالة الكلمة مع مـا يناسـبها ومـا تسـند إليه.

والباقلانى من الأعلام الراسخين ومن الأئمـة المدققيـن . تكلـم عن الإعجاز القرآنى قائلاً "وليـس الإعجـاز فـى نفـس الحـروف وإنما هو فى نظمها ، وإحكام رصفـها ، ولكونـها علـى وزن مـا

---

[1] بعض آية من سورة ص رقم ٦ الخطاب ص٤٣.

أتى به النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وليس نظمها أكثر من أن تكون متقدمة ومتأخرة ووجود بعضها قبل ووجود بعضها بعد بعض..."[١].

كشف ذلك في تحليلات وافية وتطبيقات شافية . حيث قال : "تأمل قول الله (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ). انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها. وأحتج بها على ظهور قدرته ، ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها فىنفسها غُرة ومُفردها درة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن عُلو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى فى بهجة القدرة ويتجلى بخالصة الفُرة ويجمع السلاسة إلى الرصانة ، والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافى ، والبهاء الصافى ، ولست أقول إنه شمل الاطباق المليح[٢] والإعجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ، والتقريب والتشكيل ، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خُطبة أو وجه قصيدة أو فقرة فإذا ألفت ازدادت حسنا وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا.

---

[١] إعجاز القرآن للباقلانى فى ص٣٥ــ٤٧ ، الرسالة الشافية للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٢٢ ، تحقيق د/ عبد القادر حسين.

[٢] اعجاز القرآن للباقلانى ، ص ٢١٥ ، تحقيق د/ خفاجى ، ط صبيح .

الباقلانى صاحب قلم يفيض رحيقا ولينا سائغا يستحوذ على لبك فيرسلها غُرّة ويجعلها درة من غير أن يشخص لك هذا الأمر وَيُقعّد لك هذا الطريق فيكشف لك مواطن الحُسن وفقه الكلمات التى تنبئ عن هذا الحسن ونظم الكلمات بعضها ببعض وعن سر التعبير باسم الفاعل (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) والتعبير بالفعل (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) وسر التعبير بـ (الفَلق) وعن ربط الآية بما يناسبها... ؟

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[١].

نحن أمام مشهد تصويرى وهو انبثاق الحياة القابضة من هذا الموات الهامد إنها مُعجزة الحياة نشأة وحَركة فى كل لحظة تنشق الحبة الساكنة عن نبته نامية وتتفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة ، والحياة الكامنة فى الحبّة والنواة النامية فى النبتة والشجرة . هذا سر مكنون لا يعلم حقيقته إلا الله ، حياة مُتولدة متجددة ينبئ عنه التعبير باسم الفاعل ، يُخرِجُ الحَيَّ من الميت كذلك يخرج النامي من النطف والبيض والحب والنوى ،

---

[١] سورة الأنعام : الآيتان ٩٥،٩٦.

وهذه الجملة موضحة وكاشفة ولذلك جئ بالفعل ، ثم جاء بالجملة المقابلة وهى المعطوفة على جملة (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) فقال عز وجل (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) مبدع هذا الكون هو الله وهو ربكم الذى يستحق أن يعبد فكيف تصرفون عن هذا الحق للعقول والقلوب .

(فَالِقُ الإِصْبَاحِ) وانفلاق الإصباح من الظلام حياة تشبه فى شكلها انفلاق الحبة والنواة ، وانبثاق النور فى تلك الحركة كانبثاق النور فى تلك الحركة كانبثاق البرعم فى هذه الحركة[1] وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل حالة أخرى . إنَّ الإصباح والإمساء والحركة والسكون فى هذا الكون ذات صلة وشيجة بالنبات والحياة ، ذلك أن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ، وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة هى تقديرات من العزيز ذى السلطان القادر العليم ذى العلم الشامل كل ذلك مقدر بحساب دقيق ومقدر فيه حساب الحياة ودرجة هذه الحياة ونوع هذه الحياة لا مجال للمصادفة العابرة فيه.

---

[1] فى ظلال القرآن للشهيد/ سيد قطب ، جـ٢ ، ص ١١٥٧ ، دار الشروق .

والتعبير باسم الفاعل يدل على التجدد والاستمرار فهو ليس إصباح واحد ولكنه إصباح يولد كل يوم يحيا ويموت ويحيا هكذا أبد الدهر لا تدل عليها كلمة (فَلَق الإصباح) فهى تدل على أن الصبح واحد لا يتجدد ولا يتغير كما عبرّ بشروق الصبح وخروج النبات من الحب بالفلق الذى يدل على الصدع والتشقق كما تتشقق الأرض ، ولكنه عبّر بالجعل فى قوله (وَجَعَلَ اللَّيلَ سَاكنا) والجعل هنا خلق ولكنه خلق ساكن هادئ والشمس والقمر قد عرضا هنا فى معرض وظيفى حيث يعرف الشمس وجهيهما عدد السنين والحساب.

ومرة أخرى تفيد التدبر والتأمل فى الآية الكريمة . قال الخالق فى الآية السابقة (فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى) ولم يقل فى الثانية (فالِقُ الإصْباحِ وَاللَّيل) فيكون فى هذا تجانس[١] وتقابل وتوازن فكما يولد النهار من الليل يولد الحيّ من الميت ، وبهذا تتم المقابلة بين الآيتين (يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّت) (وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) يقابلها (فالِقُ الإصباحِ والليل) بمعنى يُخرج النهار من الليل ، ويخرج الليل من النهار ، هكذا يبدو ظاهر الأمر سوى على تلك الصورة التى يظهر فيها التطابق والتوافق السطحى .

---

[١] إعجاز القرآن ، عبد الكريم الخطيب ص٢١٥ـــ٢١٦ ، ط دار الفكر .

هذا تفكير المخلوق البشرى ولكن عند فهم الأمـــر السَّـوي والتَّـأمل العقلى والإرادة الحقة وأن تنزل منزل النـــور فإنـه يتـنزل عليــها من آيات الله ما يرفع خَسيسبها ويحْيى مواتها ويبـــث أشــواقها إلـــى الملأ الأعلى (فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعل الليــلَ سَـكَنا) فــالفَلَقُ لا يكــون إلا عَنْ وِلادة ولا ينجلـــى إلا عــَنْ حيـــاة ، إصبـاحُ يلـد صُبحـا ، وصُبح يسْفر عن نهار وحياة وحركة دائبين فـــى الوجـود (وَجَعلْنـا الليل لِباَساً وَجَعلْنا النَّهارَ مَعَاشا)(١) كان من قــدرة القــادر أن جعــل حركة الكون موافقة لحركــة الأحيــاء ، وكمــا أودع الإنســان ســر النوم والسبات بعد العمـــل والنشــاط فكذلــك أودع الكــون ظــاهرة الليل ليكون لباسا ساترا يتــم فيــه السُّبات والانــزواء ، وظــاهرة النهار(٢) ليكون معاشا تتم فيـــه الحركــة والنشــاط ، بـهذا توافــق خلق الله وتناسب وكان هذا العالم بيئــة مناسـبة للأحيــاء تلبــى مــا ركب فيهم من خصـــائص ، وكــان الأحيــاء مزوديــن بــالتركيب المتفق فى حركته وحاجاته مع مـــا هــو مــودع فــى الكــون مــن خصائص وموافقات ذلك تقديــر العزيــز العليــم . واســم الإشــارة تومئ إلى هذا التنويه بهذا التقدير . وذلك الحســبان وأنــه لا يكــون إلا تقدير عزيز غالب على الأشـــياء كلــها لا يَعْــزُب عــن علمــه

---

(١) الآيتان من سورة النبأ رقم ١٠ ــ ١١.

(٢) أنظر فى ذلك : فى ظلال القرآن للشهيد / سيد قطب ، جــ٦ ص ٣٨٠٥ ، ط دار الشروق .

شئ. إنّ هناك لطائف كثيرة لا تزال مَكمُونة تنتظر من ينظر ويعقل ويفقه ويتدبر . هذه آيات وسمات تدعو إلى النظر والتأمل وسير ما في لطائف القرآن الكريم وأسرار نظمه وتذوق هذا الجمال يحتاج إلى استعداد فطرى وطبيعة خاصة ذات حس مُرهف وذكاء لماح وعلى وعى كافٍ بتراث هذه اللغة العربية ، لذلك يقول الخطابى[١] :

" وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان" .

لذلك ترى العلماء فى تتابعهم لدراسة هذه الأسرار قد تعددت بهم المسالك التى سلكوها إلى عنايتهم فنظر كل منهم إلى القرآن الكريم من جانب رأى من خلاله بعض دلائل الإعجاز واهتدى إلى شئ من أسراره حسب عطاء الله له ، وتبعا لموهبته وصفاء قريحته ، فألفت كتب فى إعجازه وكتب فى قراءاته ، وكتب فى غريبه ، وكتب فى مجازه ، وكتب فى تأويله ، وكتب فى ناسخه ومنسوخه ، وكتب فى الوقف[٢] والابتداء ، وكتب فى الاحتجاج لقراءاته وما شذ فيها وما لم

---

[١] بيان إعجاز القرآن للخطابى ، ص٣٦ ، ط دار الفكر .

[٢] مع القرآن الكريم ، ا/ على النجدى ناصف ، ص٥٦ ــ ٥٧ ، دار المعارف .

يشد ... وغير ذلك كثير إنه ليثير الآن وسيظل يثير إلى يوم الدين بحوثا . ويوحى بمقالات لا حصر لها كشفا عن أسراره وإثباتا لإعجازه .

لهذا لا يشق علينا أن نفهم عن أسلافنا ونتذوق جمال افن فيما ورثوه لنا من المنثور والمنظوم على مَرّ العصور وتلك مزية نادرة ونعمة سالفة أن يستقيم لأمة يتصل آخرها بأولها ويقوم حاضرها على أساس من ماضيها فتظل أبد الدهر أمة عتيقة عريقة ، وبنية متماسكة متكاملة .

وعلى قدر صلة المرء بالقرآن ومدى مصاحبته له يكون حظ لفته من المعدن النقى والبيئة السليمة . لنقل إذن مع القائلين إن إعجازه بنظمه وقد قالها عُلماء ثقات عُدول لهم باع طويل فى فهم النظم الكريم ، قالوها صريحة غير ذات خفاء ، وهى تمنح النظم القرآنى جماله وجلاله فى مقاماته التى تنظم فيه قالها الإمام : "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه[1] ، وخصائص صَادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيةٍ ومقاطعها ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ،

---

[1] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ، ص ٣٩ ، ط الخانجى ، الشيخ/ محمود شاكر

وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشرا عشرا وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا إتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ونظاما والتئاما ، واتقانا وإحكاما لم يدع فى نفس بليغ منهم ولوحك بيافوخه(ملتقى مقدم الرأس) السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول" [١].

هذا النص تقعيد لما يفصله وإشارة إلى الجهة التى يقودك بها إلى التحليل . يقول معقبا وجملة ما أردت أن أبينه لك بأن لابد لكل كلام نستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما أدعيناه من ذلك دليل[٢].

ونقودك إلى تحليله فى إظهار الجمال البلاغى فى قول الله

---

[١] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهرة ، ص٨٩ ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم الخفاجى ، وتحقيق الشيخ/ محمود شاكر ، ص٣٩، ط الخانجى .

[٢] دلائل الإعجاز ص ٤١.

عز وجل (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)[1] وأن الجمال لم يكن مَقْصُورًا على الاستعارة فحسب بل فى نظم الآية الكريمة من جعل الرأس فاعلا لاشتعلَ وعدوله عن أن يكون فاعله الشيب ، وتعريف الرأس وفى تفكير (شَيْبًا) . قال الإمام عبد القاهر : "ومن دقيق ذلك وخفية أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) لم يزيدوا فيه عن ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يَرَوْا المزية مُوجبا سواها . هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ولا هذا الشرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشئ وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ، ويُؤتى بالفعل الذى له فى المعنى منصوبا بعده ، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ، ومضمون هذا النظم الكريم (وَابْيَضَّ شَعْرُ الرَّأس) أو اشتعل شيب الرأس .

ويفسر ذلك فى الأمثلة التى يكون فيها التميز محولا عن

---

[1] بعض آية رقم ٤ من سورة مريم ، دلائل الإعجاز من ١٠٠ ــ ١٠١.

الفاعل فى قولهم (طَابَ زَيْدٌ نَفْسًا ، و(قَرَّ عَمْرٌو عَيْنًا) ، و(كَرُمَ أصلا ، وَحَسُنَ وَجْهًا) وأشباه ذلك مما تجده الفعل فيه منقولا عن الشئ الذى ما هو من سببه ، وذلك أنَّا نعلم أن اشتعل للشيبِ فى المعنى ، وإن كان هُوَ لِلرَّأس فى اللفظ ، كما أن طاب للنفسِ وقر للعين وأن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سُلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صَرِيحا فتقول (اشتعل شَيبُ الرأس) ، أو (الشيبُ فِى الرأس) ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التى كنت تراها ؟ ثم يجيب على التساؤل مُبرزا المزية والفضل فى هذا النظم فإن قلت : فَمَا السبب فى أن كان (اشتَعَلَ) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولم بأن بالمزية عن الوجه الآخر ؟ فإن السَّبَب أنه يفيد مع لَمَعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشُّمُول وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه وعَمَّ جملته حتى لم يبقَ من السواد شئ ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل (اشتعلَ شَيْبُ الرأس) بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

كذلك تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من

غير إضافة وهى أحد ما أوجب المزيد ولــو قيــل واشــتعل رأســى فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن وهكـــذا عندمـــا تقـــدح زنـــاد فكرك تجد الورَيَ من هذا القـــدح تَدبَــَّر نظــم الخـــالق فــى قولــه (وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا)[١] التفجير للعيــون فــى المعنـــى ، وأوقـــع على الأرض في اللفظ ، كما أسند هنـــاك الاشـــتعال إلـــى الــرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا مثــل الــذى حصــل هنـــاك وذلك أفاد أن الأرض قد كانت صــارت عُيُونـــا كلـــها ، وأن المـــاء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أجــرى اللفــظ علـــى ظـــاهره فقيل : وَفَجَّرنا عيونَ الأَرَضِ أو العُيُون فى الأرض لـــم يُفـــد ذلـــك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فـــار مـــن عُيُـــون متفرقة فى الأرض وبالقدر الذى يكـــون فـــى النظـــم الكريـــم مـــن صِحة المعني ، ودقته ، وجمال اللفظ واتســـاقه يكـــون حظـــها مـــن الفضل والإحسان بين الكلام . والنظم القرآنى ملـــئ بـــهذه الدقـــائق، ولكن على حسب المقامات والأحـــوال ، وينظـــر مـــرة ثانيـــة فـــى إسناد الفعل إلى ما يلابسه وهو إسناد الملابســـة . يقـــول فـــى قولـــه عز وجل (فَمَا رَبِحَت تِجَارَتهُم وَمَا كَـــانوا مـــهتَدِين)[٢].

يقول "وهو أن يكون التجوز فـــى حكـــم يجـــرى علـــى الكلمـــة

---

[١] بعض آية من سورة القمر رقم (١٢ ، دلائل الإعجاز ص ١٠٢.

[٢] بعض آية من سورة البقرة رقم ١٦.

فقط وتكون الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها[١] ، ويكون معناها مقصودا فى نفسه ومُرادا من غير توريه ولا تعريض... فليس من المجاز فى ربحت نفسها ولكن فى إسنادها إلى التجارة وأن الإسناد فيه رفع إلى العلو ومن الذى يخفى عليه مكان العلو وموضع المزية وصورة الفرقان بين قوله تعالى (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم) وبين أن يقال (فَمَا رَبِحُوا فِى تِجَارَتِهِم) ثم بين أن المزية فى الإسناد مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شُبهة ، وليست المزية فى الإعراب لأن العلم بالإعراب مُشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية . فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه الجَر بأعلم من غيره ، ولا ذاك مما يحتاجون فيه إلى حِدة ذهن وقوة خاطر ، إنما الذى تقع الوجه فيه إلى ذلك ، العلم بما يوجب الفاعلية للشئ إذا كان إيجابها من طريق المجاز ، كقوله تعالى (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم) مما يجعل الشئ فيه فاعلا على تأويل يَدِق ومن طريق تلطف وليس يكون هذا علما بالإعراب ولكن بالوصف الموجب للإعراب ثم يؤكد مرات أن المزية فى النظم وليس فى المعنى فقط ، حيث يقول (وأعلم أنه ليس عجب أعجب من حال من

---

[١] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ، ص ٢٩٣ ــ ٣٩٥ ، ص٣٩٦ ــ ٤٢٩ .

يرى كلامين أجزاء أحدهما مخالفة فى معانيها لأجـــزاء الآخـــر ثـــم يرى أنه يسسع فى العقل أن يكون معنى أحد الكلامين مثـــل معنـــى الآخر سواء حتى يقعد فيقول إنه لـــو كـــان يكـــون الكـــلام فصيحـــا من أجل مزية تكـــون فـــى معنـــاه ، لكـــان ينبغـــى أن توجـــد تلـــك المزية فى تفسيره ومثله فى العجـــب أن ينظـــر إلـــى قولـــه تعـــالى (فما رَبِحَتْ تِجَارَتُهم) فيرى إعراب الاسم الذى هـــو (التجـــارة) قـــد تغير فصار مرفوعا بعد أن كان مجرورا ، ويـــرى أنـــه قـــد حـــذف من اللفظ بعض ما كان فيه وهو الـــواو فـــى (رَبِحـــوا) وفـــى مـــن قولنا (فِي تِجارتهم) ثم لا يعلم أن ذلـــك يقتضـــى أن يكـــون المعنـــى قد تغير كما تغير اللفـــظ.

هذا ما سجله الإمام عبد القـــاهر فـــى هـــذا النظـــم الكريـــم وأن المزية فى الإسناد المتجوز فيـــه مـــن طريـــق الإســـناد والملابســـة وأن التجوز أعلى قدرا ومكانة مـــن الإســـناد الحقيقـــى ولكـــن أهـــل العلم نظروا إلى أشياء كثيرة فـــى هـــذا النظـــم فقـــالوا فـــى (فمـــا رَبِحت تِجَارَتُهم) رتبت الفاء عـــدم الربـــح المعطـــوف بـــها وعـــدم الاهتداء المعطـــوف عليـــه علـــى اشـــتراء الضلالـــة بالـــهدى لأن كليهما ناشئ عن الاشتراء المذكور فـــى الوجـــود والظـــهور وأســـند الربح إلى التجارة ونفى عنـــها لأن الربـــح مســـبب عـــن التجـــارة وكان الرابح هو التاجر وإسناده إلى التجارة لأنـــها ســـببه .

والربح هو الفضل على رأس المال ، والتجارة صناعة التاجر وهو الذى يبيع ويشترى للربح . وفى لفظ الاشتراء تجوز وهو إما مجاز مرسل لأن الاشتراء استبدال خاص أريد به المطلق أو استعمل فى لازمه ، ويجوز أن يكون الاشتراء استعارة وهى تبعية ، فاستعير الاشتراء للاختيار والاستبدال ، وذلك لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ، ثم يوضح الزمخشرى[1] كيفية ملكهم للهدى ولم يكونوا على هدى . قال : "فإن قلت كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى" . قلت "جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه فى أيديهم فإن تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التى فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة ، والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء ، واستعيرت للذهاب عن الصواب فى الدين . ويحلل الزمخشرى المجاز العقلى فى الآية والقرينة الباعثة على ذلك وإن كان مسبوقا بغيره[2] فى هذا الأمر .

فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها. قلت "من الإسناد المجازى وهو أن يسند الفعل إلى شئ يتلبس

---

[1] الكشاف جـ ١ ص٣٩ ، ط الهيئة المصرية .

[2] معانى القرآن للفراء ، جـ١ ، ص١٤ ، ط الهيئة العامة للكتاب .

بالذى هو فى الحقيقه له كما تلبست التجارة بالمشترين". قال : "فإن قلت هل يصح رَبح عبدُك وخسرت جَاريتُك على الإسناد المجازى" قلت : " نعم إذا دلت الحال فإن لم يكن حال دالة لم يصح فلو قال قائل (قد خَسِرَ عبدُك) لم يجز ذلك إن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه أو يوضع ، لأنه قد يكون العبد تاجرا ، فيربح أو يوضع فلا يعلم معناه إذا ربح هو من معناه إذا كان متجوزا فيه ، ثم يوضح الزمخشرى الترشيح الموجود فى الاستعارة ومناسبة الربح للشراء فى قوله هذا من الصفة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بإشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم نر كلاما أحسن منه ديباجه وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح .

والترشيح حقيقته خُروج البلل والقطر الصغار مما يشتمل على شئ مائع ماء كان أولا وعاء كان أو غيره كالضرع ولا يختص بالجلد من الحيوان كرشح الجبين ورشح القرب"[1].

والعرب كَنُّوا به عن تربية الأم ولدها لنها ترشحه بلبنها قليلا قليلا . فقالوا : رشحت الغزالة ولدها إذا عودته المشى معها ورشحت الأم ولدها باللبن إذا جعلته فى فيه شيئا فشيئا

---

[1] عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى الخفاجى ، جـ١ ، ص ٣٥٨ ، ط بولاق

حتى يقوى على مصه ثم تجوزوا بـه تجـوزا مبنيـا علـى الكتايـة عن مطلق التربية والتهيئة لأمـر مـا فقـالوا ترشـح للـوزارة إذا تأهل لها ثم نقله أهل المعانى لمـا يلائـم المعنـى المجـازى غـير القرينة المعنيـة .

وهو لفظ يذكر مع المجاز يناسـب معنـاه المـراد منـه ظـاهر المعنى المجازى سواء تقدم أو تأخر ، والربـح والتجـارة يلائمـان المعنى المسـتعار منـه وهـو الاشـتراء وهـذا تعضيـد وتقويـة للاسـتعارة.

ولا نريد أن ندع عبد القـاهر وكتابـه دلائـل الإعجـاز دون أن تلتقط شيئا آخر من جَنَىَ ثمرة الذى قدم لنـا طرفـا منـه وإن كـان [illegible] فى الإسناد من نظم إلا أنـه يفتـح طاقـات جديـدة مـن النور ، تزداد بها معالم الطريق وضوحـا واسـتقامة يضـرب عبـد القاهر للحقائق الفنية الرفيعة مثلا لآية من آيـات الله المودعـة فـى كتابه الكريم ، وهى قوله تعالى (وَجَعَلُـوا لِلَّهِ شُـرَكَاءَ الجِـنَّ)[1].

لقد نظر الإمام عبد القاهر إلى هـذا النظـم مـن شِـقين : الأول فى بيان حسن النظم وما فيه من روعة ومـأخذ مـن القلـوب فـى تقديم بعض الكلمات على بعض فنظم القـرآن فـى قولـه (وَجَعَلُـوا

---

[1] بعض آية سورة الأنعام رقم ١٠٠ ، دلائل الإعحاز ص٢٨٦ ــ ٢٨٧.

لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ) أفضل من إذا قلت : (وَجَعَلُوا الجِنَّ شُرَكاء لله) ذلك إنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء عبدوهم مع الله وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر جاء مع التقديم ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن ، وإذا أخر فقيل (جَعَلُوا الجِنَّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ) لم يفد ذلك ولم يكن فيه شئ أكثر من الإخبار عنهم بأنه عبدوا الجن مع الله تعالى . فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير (شركاء) دليل عليه ، وإذا كان شركاء متأخرا كان مخصوصا غير مطلق من حيث كان محالا أن يجرى خبرا على الجن ، ثم يكون عاما فيهم وفي غيرهم وإذا كان كذلك احتمل أن يكون القصيد بالإنكار إلى الجن خصوصا أن يكونوا شركاء دون غيرهم جل الله تعالى عن أن يكون له شريك وشبيه بحال .

هذا الأمر من ناحية تقديم (لِلَّهِ شُرَكاء) على جعل (شُرَكاء) مفعولا أولا لـ(جعل) و لله في موضع المفعول الثاني .

النظرة الثانية في تقدير المحذوف وجعل (الجن) على كلام ثان ، وعلى تقدير نصب الجن لفعل محذوف كأنه قيل (فمن

جعلوا شركاء لله تعالى ؟) فقيل الجن ، وفي هذا إيجاز بالحذف.

ونظم الآية الكريمة بما فيها من التقديم يكون الإنكار على كون شركاء لله تعالى على الإطلاق ، وحصل من ذلك اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن ، لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراه على ذلك ، كان الذى تعلق بها من النفى عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة .

ثم يختم حديثه ، طَيَّب الله ثراه ــ بأن يبصرك بجواهر كانت مكمونة وبدفائن كان مخزونة ، وبروائع كانت غائبة. حيث يقول فانظر إلى شرف ما حصل في المعنى بأن قدم ــ شركاء ــ وأعتبره[1] فإنه ينبهك لكثير من الأمور وبذلك على عظم شأن النظم ، وتعلم به كيف يكون الإعجاز به وما صورته؟ وكيف يزاد فى المعنى من غير أن يزاد فى اللفظ ، إذ قد ترى أن ليس إلا تقديم وتأخير وأنه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى ما إن حاولته مع تركه لم يحصل لك .

---

[1] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهرة ، ص٢٨٨.

والزمخشرى ــ رحمه الله[١] ــ نظر إلى نصب لفظ الجن على أن يكون بدلا من شركاء أو على أن يكون مفعولا أولا لجعل ، وكشف سر التقديم فى قوله (لِلّهِ شُرَكاء) وقال إن التقديم فائدته استعظام أن يتخذ لك شريك من كان ملكا أو جنيا أو إنسيا أو غير ذلك ولذلك قدم اسم الله على الشركاء.

والاستعظام والإنكار يخرجان من مشكاة واحدة لأنهما ينبعثان من حدوث أمر عجيب منكر خارج عن الطوق المعروف.

هذه ودائع العلماء صاغوها سبائك يتحلى بها ويستضاء بنورها وهى قل من كثر وغيض من فيض من أسرار كتاب الله إذ أسراره متجددة ، وصدق الله العظيم حيث يقول (مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللّهِ بَاقٍ)[٢].

ومسك الختام صلوات وتسليمات على سيدنا رسول الله ــ محمد بن عبد الله

وكتبه الفقير إلى ربه الجواد

أحمد بن عبد الجواد بن محمد عكاشه
أستاذ البلاغة والنقد ووكيل الكلية

---

[١] الكشاف ، جـ١ ص٣٠٤.

[٢] النحل الآية ٩٦.